﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي.. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] فليس لي سلطان قَهْر أحملكم به على المعصية ، ولا سلطان حُجَّة وبرهان فأُقنعكم بها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) ﴾ [الإسراء]

الوكيل هو المؤيِّد ، وهو الناصر ، تقول : وكلت فلاناً . أي : وثقت به ليؤدي لي كل ما أريد ، فإنْ كان في البشر مَنْ تثق به ، وتأتمنه على مصالحك ، فما بالك إنْ كان وكيلك هو الله عز وجل ؟ لا شكَّ إنْ كان وكيلك الله فهو كافيك ومُؤيِّدك وناصرك ، فلا يُحوجك لغيره سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي[1] لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) ﴾

الربُّ هو المتولِّي تربيتك : خلْقاً من عَدم ، وإمداداً من عُدم ، وقيُّوميته تعالى عطاء ينتظم المؤمن والكافر ﴿ يُزْجِي ﴾ الإزجاء : الإرسال بهوادة شيئاً فشيئاً . و ﴿ الفُلْك ﴾ هي السفن وتُطلَق على المفرد وعلى الجمع ، وعلى المذكّر والمؤنث .

(١) زجا الشيء : تيسَّر واستقام . وأزجاه : ساقه برفق . قال تعالى : ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. (٦٦) ﴾ [الإسراء] أي : يدفعها ويُسيِّرها برفق فوق الماء [القاموس القويم ١/٢٨٤] .

ومنها قوله تعالى ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ .. (١٦٤)﴾ [البقرة]

ومنها قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ .. (٢٢)﴾ [يونس]

ثم يقول تعالى : ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٦٥)﴾ [الإسراء]

الابتغاء هو القصد إلى نافع يطلب من البحر كالقوت أو غيره ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٤)﴾ [النحل]

فالبحر مصدر من مصادر الرزق والقُوت ، ومُستودع لثروة عظيمة من فضل الله تعالى ؛ لذلك قال بعدها : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)﴾ [الإسراء]

والرحمة اتساع مَدَد الفضل من الله ، فالذي أعطاكم البَرَّ بما فيه من خيرات أعطاكم البحر أيضاً بما فيه من خيرات .

والأرض التي نعيش عليها إما بَرّ يسمى يابسة ، أو بحر ، وإنْ كانت نسبة اليابس من الأرض الرُّبْع أو الخُمْس ، فالباقي بحر شاسع واسع يَزْخَر من خَيْرات الله بالكثير .

وطُرُق السير في اليابسة كثيرة متعددة ، تستطيع أن تمشي أو تركب ، وكُلٌّ وسيلة من وسائل الركوب حَسْب قدرة الراكب ، فهذا يركب حماراً ، وهذا يركب سيارة ، وتستطيع أن تنتقل فيها من مكان إلى آخر . أما البحر فلا يمكن الانتقال فيه إلا أنْ تُحملَ على شيء ، فمن رحمة الله بنا أنْ جعل لنا السفن آية من آياته تسير بنا على لُجَّة الماء ، ويمسكها بقدرته تعالى فنأمَن الغرق .

وأول مَنْ صنع السفن بوحى من الله نوح عليه السلام ، فلم تكُنْ معروفة قبله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود]

فلم يكُنْ للناس عَهْد بالسفن ، وكانت سفينة نوح بدائية من ألواح الخشب والحبال ، ولولا أن الله تعالى دَلَّه على طريقة بنائها ، وهداه إلى تنظيمها ما كان له عِلْم بهذه المسألة ، فكَوْنُ الحق سبحانه يهدينا بواسطة نبى من أنبيائه إلى مركب من المراكب التى تيسّر لنا الانتفاع بثلاثة أرباع الأرض ، لا شكَّ أنها رحمة بالإنسان وتوسيع عليه .

وكذلك من رحمته بنا أنْ يسّر لنا تطوير هذا المركب على مَرِّ العصور ، فبعد أنْ كان يتحرك على سطح الماء بقوة الهواء باستخدام ما يُسمَّى بالقِلْع ، والذى يتحكم فى المركب من خلاله ، ويستطيع الربّان الماهر تسفيح القلع ، يعنى توجيهه إلى الناحية التى يريدها .

فكان الريح هو الأصل فى سَيْر السفن ، ثم أتى التقدم العلمى الذى اكتشف البخار والآلات ثم الكهرباء ، وبذلك سَهُل على الإنسان تحريك السفن على سطح الماء بسهولة ويُسْر ، كما تطورتْ صناعة السفن كذلك على مَرِّ العصور ، حتى أصبحنا نرى الآن البوارج الكبيرة متعددة الأدوار ، والتى تشبه فعلاً الجبال ، مصْداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ[1] (٣٢) ﴾ [الشورى]

يعنى : كالجبال ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يُعطينا الدليل على

---

(١) الأعلام : الجبال . والعلَم : الجبل الطويل . [لسان العرب ـ مادة : علم] .

علْمه تعالى بما سيصل إليه العالم من تقدم ، وما ستصل إليه صناعة السفن من رقىّ يصل بها إلى أنْ تكونَ كالجبال ، وإلاّ ففى زمن نزول القرآن لم يكُنْ هناك بوارج عالية كهذه ، إنها لم توجد إلا بعد قانون أرشميدس الذى تُبنَى على أساسه هذه البوارج .

لكن مع كل هذا التقدم فى مجال الملاحة البحرية لا نغفل أن القدرة الإلهية هى التى تُسيِّر هذه السفن ، وتحملها بأمان على صفحة الماء ، ويجب ألاّ يغترّ الإنسان بما توصّل إليه من العلوم ، ويظن أنه أصبح مالكاً لزمام الأمور فى الكون ؛ لأن الحق سبحانه يقول : ﴿إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣)﴾ [الشورى]

والريح هى الأصل فى تسيير السفن .

فإنْ قال قائل الآن : إنْ توقف الريح استخدمنا القوى الأخرى مثل البخار أو الكهرباء . نقول : لقد أخذت الريح على أنه الهواء فقط ، إنما لو نظرتَ إلى كلمة الريح ، وماذا تعنى لوجدتَ أن معنى الريح القوة المطلقة أياً كان نوعها ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأنفال] إذن : الريح هو القوة المطلقة .

فمعنى : ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ .. (٣٣)﴾ [الشورى] يُسكن القوة المحرّكة للسفن أياً كانت هذه القوة : قوة الريح أو البخار أو الكهرباء أو غيرها من القوى ، فإنْ شاء سبحانه تعطّلَتْ كُلُّ هذه القوى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧)﴾

البحر هو المزنق والضائقة التى لا يستطيع الخلاص منها إنْ أصابه فيه سوء ، فالبر منافذ النجاة فيه متعددة ، أما البحر فلا نجاة فيه إلا بعناية الله ، يقول تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٢٢) ﴾ [يونس]

وهكذا الإنسان حتى الكافر ، إذا ضاقتْ به الحيل ولم يجد مَنْفذاً يلجأ إلى الله المنقذ الحقيقى والمفرِّج للكَرْب ، والإنسان عادة لا يُسلم نفسه ويظلّ مُتعلّقاً بالأمل فى النجاة .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

أى : أحاط بهم الخطر بالريح العاصف أو الموج العالى ، وأحسُّوا بخطورة الموقف ولا مُنقذَ لهم إلا الله ، حتى الكفار فى هذا الموقف يَصْدُقون مع أنفسهم ، ولا يخدعونها ولا يكذبون عليها ، فإنْ آمنوا بآلهة أخرى وإنْ عبدوا الأصنام والأوثان ، فإنهم فى هذا الضيق لا يلجأون إلا إلى الله ، ولا يدعون إلا الله ؛ لأنهم يعلمون تماماً أن آلهتهم لا تسمع ولا تجيب ، ولا تملك لهم نفعاً ولا نجاة .

قوله تعالى : ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء] أى : ذهب عن بالكم مَن اتخذتموهم آلهة ، وغابوا عن خاطركم ، فلن يقولوا هنا يا هبل ؛ لأنهم لن يغشُّوا أنفسهم ، ولن ينساقوا وراء كذبهم فى هذا الوقت العصيب .

إنهم فى هذا الضيق لن يتذكروا آلهتهم ، ولن تخطرَ لهم ببال

أبداً ؛ لأن مجرد تذكّرهم يُضعف ثقتهم في الله الذي يملك وحده النجاة ، والذي يطلبون منه المعونَة .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بقصة حلاق الصحة في الريف الذي يتولى علاج البسطاء ، ويدّعي العلم والخبرة ، فإذا ما مرض ولده فإنه يُسرع به إلى الطبيب ، لأنه إنْ خدع الناس فلن يخدع نفسه ، وإنْ كذب عليهم فلن يكذب على نفسه .

وكذلك الإنسان لا يبيع نفسه رخيصاً ، فإنْ أحاطتْ به الأخطار لا يلجأ إلا إلى الله ؛ لأنه وحده القادر على تفريج الكروب وإغاثة الملهوف ، حتى وإنْ كان كافراً ؛ لأنه سبحانه هو الذي أمره أنْ يلجأ إليه ، وأنْ يدعوه ، فقال :

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام]

فإنْ دَعَوْهُ سمع لهم وأجابهم على كفرهم وعنادهم ؛ لأنهم عباده وخَلْقه وصَنْعته ، فما أرحمه سبحانه حتى بمَنْ كفر به !

لذلك قال رب العزة في الحديث القدسي : « قالت الأرض : يا رب إئذن لي أن أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت السماء : يا رب إئذن لي أن أسقط كسَفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا ربِّ إئذن لي أن أخرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا ربِّ إئذن لي أن أُغرقَ ابن آدم فقد طَعم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعوني وما خلقت ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإنهم عبادي ، فإنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

لقد غفر لهم الحق سبحانه أن يعبدوا غيره ، وأن يؤذوا النبوة ، وأنْ يقفوا في وجه الدعوة ، غفر لهم لأنه ربٌّ ، وما دام رباً فهو

رحيم ، فتضرعوا إليه ودَعَوْهُ ، فلمّا نجّاهم إلى البر أعرضوا ، وعادوا لما كانوا عليه وتنكّروا للجميل والمعروف ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء]

وكفور : صيغة مبالغة من الكفر ، أى : كثير الكفر للنعمة ، ولَيْتَه كفر بنعمة الخلق فقابل : إنه أتى هكذا من فعل الطبيعة ، إنما كفر بنعمة ملموسة مشاهدة عاش مأزقها ، وقاسى خطرها ، ثم إذا نجَّاه الله أعرض وتمرَّد ، وهذا من طبيعة الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا[1] ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ ﴾

فهؤلاء الذين أعرضوا عن الله بعد إذ نجَّاهم فى البحر آمنُوا مكْر الله فى البر ؟ وهل الخطر فى البحر فقط ؟ وأليس الله تعالى بقادر على أن يُنزل بهم فى البر مثل ما أنزل بهم فى البحر ؟

يقول تعالى : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الإسراء]

. كما قال تعالى فى شأن قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص] ولستم ببعيدين عن هذا إنْ أراده الله لكم ، وإنْ كنا نقول « البر أمان » فهذا فيما بيننا وبين بعضنا ، أما إنْ جاء أمر الله فلن يمنعنا منه مانع .

(١) حصبه : قذفه بالحصى . والحاصب : الإعصار الشديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا .. (٦٨) ﴾ [الإسراء] أى : ريحاً تحمل الحصباء ، وترجمكم بها رَجْماً ، والحصباء الحصى الصغار ، وهى لَوْن من ألوانِ العذاب الذى لا يُدفَع ولا يُرَدّ ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) ﴾ [الإسراء]

أى : لا تجدوا مَنْ ينصركم ، أو يدافع عنكم . إذن : لا تظنوا أن البر أمان لا خطر فيه .. لا ، بل خطرى موجود غير بعيد منكم ، سواء أكنتم فى البحر أم فى البر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) ﴾

أى : وإنْ نجاكم من خطر البحر ، فلا مجال للأمن فى البر ؛ لأنه قادر سبحانه أن يُذيقكم بأسه فى البر ، أو يُعيدكم فى البحر مرة أخرى ، ويُوقعكم فيما أوقعكم فيه من كَرْب فى المرة الأولى ، فالمعنى : أنجوتُمْ فأمنتُم .

وقوله تعالى : ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ .. (٦٩) ﴾ [الإسراء]

القاصف : هو الذى يقصف بعنف وشدة ، ولا يكون إلا فى اليابس ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ .. (٦٩) ﴾ [الإسراء] أى : بسبب كفركم بنعمة الله ، وجحودكم لفضله ، فقد نجاكم فى البحر فأعرضتم وتمردتم ، فى حين كان عليكم أن تعترفوا لله بالجميل ، وتُقِرُّوا له بالفضل .

ثم يقول تعالى : ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء]

عندنا تابع وتبيع ، التابع : هو الذى يتبعك لعمل شىء فيك ، أما التبيع : فهو الذى يُوالى تتبعك ، ويبحث عنك لأخذ ثأره منك . فالمعنى : إنْ فعلنا بكم هذه الأفعال فلن تجدوا لكم تبيعاً يأخذ بثاركم أو ينتقم لكم ، إذن : لا أملَ لكم فى ناصر ينصركم ، أو مدافع يحميكم .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا لا أخاف ردَّ الفعل منكم ، والإنسان يُحجم عن الفعل مخافةَ ردِّ الفعل ، ويجلس يفكر طويلاً : إذا ضربتُ فلاناً فسيأتى أهله ويفعلون بى كذا وكذا ، أما الحق سبحانه وتعالى فلا أحدَ يستطيع رداً على انتقامه أو عذابه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

وهل هناك تكريم لبنى آدم أعظم من أنْ يُعدّ لهم مُقوِّمات حياتهم قبل أنْ يخلقهم ؟ لقد رتَّب لهم الكون وخلق من أجلهم الأشياء ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا .. ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة]

إذن : فكل ما فى الوجود مُسخَّر لكم من قبل أنْ تُوجَدوا ؛ لأن خلق الله تعالى إما خادم وإما مخدوم ، وأنت أيُّها الإنسان مخدوم من

كل أجناس الكون حتى من الملائكة ، ألم يَقُلْ الحق سبحانه : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد]

وقال تعالى : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥)﴾ [النازعات]

فالكون كله يدور من أجلك وفي خدمتك ، يعطيك عطاءً دائماً لا ينقطع دون سَعْي منك ، لذلك نقول : كان من الواجب على العقل المجرد أنْ يقفَ وقفة تأمُّل وتفكُّر ؛ ليصل إلى حَلٍّ للغز الكون ، وليهتدي إلى أن له خالقاً مُبْدعاً ، يكفي أن أنظر إلى آيات الله التي تخدمني ، وليس لي قدرة عليها ، وليست تحت سيطرتي ، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والهواء والماء والمطر والسحاب كلها تعطيني وتُمدّني دون قدرة لي عليها ، أليس من الواجب عليك عدلاً أن تقول : مَنِ الذي أعدّ لي كلّ هذه الأشياء التي ما ادّعاها أحد لنفسه ؟

فإذا ما صاح صائح منك أيُّها الإنسان وقال : أنا رسول من الرب الذي خلق لكم كل هذه المخلوقات ، كان يجب عليكم أنْ تُرهِفُوا له السمع لتسمعوا ما جاء به ؛ لأنه سوف يحلُّ لكم هذا اللغز الذي حيّركم .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك بالرجل الذي انقطعتْ به السُّبل في الصحراء حتى أشرف على الهلاك ، فإذا هو بمائدة مُعدَّة بأطايب الطعام والشراب ، أليس حَرِيّاً به قبل أنْ تمتد يده إليها أنْ يفكر كيف أتتْه ؟

---

(١) له معقبات : أي ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله . أو المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢/ ٢٩] .

إذن : كان على الإنسان أن يُعمل عقله وفكْره فى معطيات الكون التى تخدمه وتسخر من أجله ، وهى لا تأتمر بأمره ولا تخضع لقدرته .

وقد اختلف العلماء فى بيان أوْجُه التكريم فى الإنسان ، فمنهم مَنْ قال : كُرِّمَ بالعقل ، وآخر قال : كُرِّمَ بالتمييز ، وآخر قال : كُرِّمَ بالاختيار ، ومنهم مَنْ قال : كُرِّم الإنسان بأنه يسير مرفوع القامة لا مُنحنياً إلى الأرض كالبهائم ، ومنهم مَنْ يرى أنه كُرِّم بشكل الأصابع وتناسقها فى شكل بديع يسمح لها بالحركة السلسة فى تناول الأشياء ، ومنهم مَنْ يرى أنه كُرِّم بأن يأكلَ بيده لا بفمه كالحيوان . وهكذا كان لكل واحد منهم ملْحظ فى التكريم[1] .

ولنا فى مسألة التكريم هذه ملحظ كنت أودُّ أنْ يلتفت إليه العلماء ، ألاَ وهو : أن الحق سبحانه خلق الكون كله بكلمة (كُنْ) إلا آدم ، فقد خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، قال تعالى : ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص]

وقال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر]

فقمة الفضل والتكريم أن خلق الله تعالى أبانا آدم بيده ، بدليل أن الله جعلها حيثية له .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٠٢٢/٥) : « والصحيح الذى يُعوِّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذى هو عمدة التكليف ، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله ، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ[1] فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾

أى : يوم القيامة ، والداعى هو المنادى ، والناس هم المدعوون ، والنداء على الناس فى هذا اليوم لا يكون بفلان بن فلان ، بل ينادى القوم بإمامهم أى : برسولهم ، فيقال : يا أمة محمد ، يا أمة عيسى ، يا أمة موسى ، يا أمة إبراهيم .

ثم يُفصّل هذا الإجمال ، فتُنادى كل جماعة بمَنْ بلَّغهم وهداهم ودلَّهم ليُغرى الناس بنقل الفضل العلمى من أنفسهم إلى غيرهم .

وقال بعضهم (بإمَامِهِمْ) أى : بأمهاتهم ، وفى دعاء الناس بأمهاتهم فى هذا الموقف تكريم لعيسى عليه السلام أولاً ، وستْر على

---

(١) اختلف العلماء والمفسرون فى تأويل كلمة « بإمامهم » :
- بكتابهم ، بكتاب كل إنسان منهم الذى فيه عمله . قاله ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك .
- بالكتاب المنزل عليهم . أى : يدعى كل إنسان بكتابه الذى كان يتلوه ، فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل القرآن بالقرآن . قاله ابن زيد .
- بنبيهم ، والإمام مَنْ يؤتم به . قاله مجاهد
- بإمام عصرهم . قاله قتادة وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه .
- بأعمالهم . فيقال : أين الراضون بالمقدور ، أين الصابرون عن المحذور . قاله الحسن وأبو العالية وابن عباس .
- بأمهاتهم . قاله محمد بن كعب .

ذكر القرطبى هذه الأقوال فى تفسيره (٤٠٢٥/٥) .

أولاد الإثم ثانياً ، حتى لا يُفضحوا على رؤوس الأشهاد فى مثل هذا الموقف .

ثم يقول تعالى : ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَـٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١)﴾ [الإسراء]

فكوْنه أخذ كتابه بيمينه ، فهذه بشارة الخير وبداية السلامة ، فإذا به يسارع إلى قراءته ، بل ويتباهى به بين الناس قائلاً : ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩)﴾ [الحاقة] إنه مسرور بعمله الصالح الذى يحب أنْ يطلع عليه الناس ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١)﴾ [الإسراء]

الظلم أنْ تأخذ من خير غيرك مما ليس عندك ، إذن : فعندك نقص فى شىء تريد أنْ تحصل عليه ظلماً ، إذن : فماذا ينقص الحق سبحانه وتعالى حتى يظلم الخَلْق ؟! إن الخلق يتصفون بالظلم ؛ لأن الإنسان عادةً لا يرضى بما قسم الله له ؛ لذلك يشعر بالنقص فيظلم غيره ، أما الله عز وجل فهو الغنى عن الخَلْق ، فكيف يظلمهم ؟ وهم جميعاً بما يملكون هبة منه سبحانه .

ومعنى ﴿ فَتِيلًا ﴾ عادةً يضرب الحق سبحانه وتعالى الأمثال فى القرآن بالمألوف عند العرب وفى بيئتهم ، ومن مألوفات العرب التمر ، وهو غذاؤهم المفضّل والعلف لماشيتهم ، ومن التمر أخذ القرآن النقير والقطمير والفتيل ، وهى ثلاثة أشياء تجدها فى نواة الثمرة ، وقد استخدمها القرآن فى تمثيل الشىء الضئيل القليل .

فالنقير[1] : هو تجويف صغير فى ظهر النواة مثل النقطة .

---

(١) ورد لفظ « النقير » فى القرآن مرتين :
- ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣)﴾ [النساء] .
- ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)﴾ [النساء]

والقطمير[(١)] : هو اللفافة الرقيقة الشفافة بين الثمرة والنواة .

والفتيل : هو غلالة رقيقة تشبه الخيط فى بطن النواة .

فمعنى : ﴿وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١)﴾ [الإسراء] أى : أنه سبحانه وتعالى لا يظلم الناس أبداً ، فهو سبحانه مُنزَّه عن الظلم مهما تناهى فى الصِّغَر .

وفى مقابل مَنْ أوتى كتابه بيمينه لم تذكر الآية مَنْ أُوتى كتابه بشماله ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥)﴾ [الحاقة] وفى آية أخرى قال : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠)﴾ [الانشقاق]

أما هنا فقال الحق سبحانه :

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

وهذا هو المقابل لمن أخذ كتابه بيمينه ؛ لأنه عميتْ بصيرته فى الدنيا فعمى فى الآخرة ، وطالما هو كذلك فلا شكَّ أنه من أهل الشمال ، فالآيات ذكرتْ مرة السبب ، وذكرتْ مرة المسبَّب ، ليلتقى السبب والمسبب ، وهو ما يعرف باسم [الاحتباك] البلاغى .

فكأن الحق سبحانه قال : إن مَنْ أُوتى كتابه بيمينه وقرأه وتباهى به لم يكُنْ أعمى فى دنياه ، بل كان بصيراً واعياً ، فاهتدى إلى منهج الله وسار عليه ، فكانت هذه نهايته وهذا جزاءه .

---

(١) ورد لفظ « القطمير » فى القرآن مرة واحدة :

- ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣)﴾ [فاطر] .

أما مَنْ أوتى كتابه بشماله فقد كان أعمى فى الدنيا عمى بصيرة لا عمى بصر ؛ لأن عمى البصر حجب الأداة الباصرة عن إدراك المرائى ، والكافرون فى الدنيا كانوا مُبصرين للمرائى من حولهم . مُدركين لماديات الحياة ، أما بصيرتهم فقد طُمِس عليها فلا ترى خيراً ، ولا تهتدى إلى صلاح .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان لكى يسير فى رحلة الحياة على هدى لا بُدَّ له من بصر يرى به المرائى المادية ، حتى لا يصطدم بأقوى منه فيتحطم أو بأضعف منه فيحطمه ، والبصر للمؤمن والكافر من عطاء الربوبية للإنسان . لكن إلى جانب البصر هناك عطاء آخر هو ثمرة من ثمار عطاء الألوهية الذى لا يكون إلا للمؤمن ، ألا وهو البصيرة ، بصيرة القيم التى يكتسبها الإنسان من منهج الله الذى آمن به وسار على هَدْيه .

وقوله : ﴿ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) ﴾ [الإسراء]

إنْ كان عماه فى الدنيا عمى بصيرة ، فعَماه فى الآخرة عمى بصر ؛ لأن البصيرة مطلوبة منه فى الدنيا فقط ؛ لأن بها سيُعرف الخير من الشر ، وعليها يترتب العمل ، وليست الآخرة مجال عمل ، إذن : العمى فى الآخرة عمى البصر ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

وقال عنهم فى آية أخرى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا .. (٩٧) ﴾ [الإسراء]

لكن قد يقول قائل : هناك آيات أخرى تثبت لهم الرؤية فى الآخرة ، مثل قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ .. (٧٥)﴾ [مريم]

وقوله تعالى : ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ..(٥٣)﴾ [الكهف]

وللجمع بين هذه الآيات وللتوفيق بينها نقول : للكفار يوم القيامة فى مجال الرؤية البصرية حالتان : الأولى عند القيام وهَوْل المحشر يكونون عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً لتزداد حَيْرتهم ويشتد بهم الفزع حيث هم فى هذا الكرب الشديد ، ولكن لا يعرف ما يحدث ولا أين المهرب ، ولا يستمعون من أحد كلمة ، وهكذا هم فى كَرْب وحَيْرة لا يدرون شيئاً . وهذه حالة العمى البصرى عندهم .

أما الحالة الثانية وهى الرؤية ، فتكون عندما يتجلى الحق تبارك وتعالى لأهل الموقف ويكشف الغطاء عن نفسه سبحانه ، فهنا يصير الكافر حادّ البصر ، ليرى مكانه من النار .

ولا بُدَّ لنا هنا أن نلحظ أن ألفاظ اللغة قد يكون اللفظ واحداً ولكن يختلف السياق ، ففى قوله تعالى : ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)﴾ [الإسراء]

فلفظ (أعْمَى) واحد ، لكن فى الآخرة قال (وأَضَلُّ سَبِيلاً) إذن : لابُدَّ أن عمى الدنيا أقلّ من عمى الآخرة ، كما تقول : هذا خير . فمقابل خير : شر . أما لو قلت : هذا خَيْر من هذا فقد فضَّلْتَ الأول فى الخيرية عن الثانى ، إذن : كلمة خير إما أنْ تأتى وَصْفاً ، وإما أن تأتى تفضيلاً .

ومن ذلك قول الرسول ﷺ : « المؤمن القوى خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1] .

فالمراد أن المؤمن القوى أكثر فى الخيرية . إذن : فكلمة : ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ .. (٧٢)﴾ [الإسراء] ليست وَصْفاً ، وإنما تفضيل لعمى الآخرة على عمي الدنيا ، أى أنه فى الآخرة أشدُّ عمًى .

وقوله تعالى : ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢)﴾ [الإسراء] ومعلوم أنه كان ضالاً فى الدنيا ، فكيف يكون أضلَّ فى الآخرة ؟

قالوا : لأن ضلاله فى الدنيا كان يمكن تداركه بالرجوع إلى المنهج والعودة إلى الطريق السَّوىّ ، أما فى الآخرة فضلاله لا يمكن تداركه ، فقد انتهى وقت الاختيار ، إذن : فضلالهُ فى الآخرة أشدّ وأعظمُ من ضلاله فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) ﴾

وهذه خبيثة جديدة من خبائثهم مع رسول الله ﷺ ، فقد كانوا يحاولون جادِّين أنْ يصرفوا رسول الله عما بعثه الله به ، فمرة

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : نزلت فى وفد ثقيف أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : متعنا باللات سنة ، وحرِّم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها ، فأبى ذلك رسول الله ﷺ ولم يجبهم . فأنزل الله هذه الآية . وقال سعيد بن جبير : قال المشركون للنبى ﷺ : لا نكف عنك إلا بأن تُلم بآلهتنا ولو بطرف أصابعك ، فقال النبى ﷺ : ما علىَّ لو فعلت والله يعلم أنى بارّ . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

يقولون له : دَعْ آلهتنا نتمتع بها سنة ونأخذ الغنائم من ورائها وتحرم لنا بلدنا - أى : ثقيف - كما حرمت مكة . ومرة يقولون له : لا تستلم الحجر ويمنعونه من استلامه حتى يستلم آلهتهم أولاً .

ومعنى (كادوا) أى قاربوا ، والمقاربة غير الفعل ، فالمقاربة مشروع فعل وتخطيط له ، لكنه لم يحدث ، إنهم قاربوا أنْ يفتنوك عن الذى أُنزل إليك لكن لم يحدث ؛ لأن محاولاتهم كانت من بعيد ، فهى تحوم حول فتنتك عن الدين ، كما قالوا مثلاً : نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة[1] .

ومعنى : ﴿ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ لَيُحوّلونك ويَصرِفونك عما أنزل الله إليك ، لماذا ؟ ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ .. (٧٣)﴾ [الإسراء] كما حكى القرآن عنهم فى آية أخرى : ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ .. (١٥)﴾ [يونس]

فيكون الجواب من الحق سبحانه : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ [يونس]

وقال تعالى : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

ونلاحظ فى مثل هذا الموقف أن الحق سبحانه يتحمل العنت عن

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد ، وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنا بسوء ، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح . قال : ما هى ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . فنزل الوحى بقوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)﴾ [الكافرون] ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/٦٥٤) .

رسوله ، وينقل المسألة من ساحة الرسول إلى ساحته تعالى ، لكى لا تكون عداوة بين محمد وقومه ، فالأمر ليس من عند محمد بل من عند الله ، يقول تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لايُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

فلا تحزن يا محمد ، فأنت مُصَدَّق عندهم ، لكن المسألة عندى أنا ، وهكذا يتحمل الحق سبحانه الموقف عن رسوله حتى لا يحمل القوم ضغينة لرسول الله .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) ﴾ [الإسراء]

الخليل : هو المخالّ الذى بينك وبينه حُبٌّ ومودّة ، بحيث يتخلل كل منكما الآخر ويتغلغل فيه ، ومنه قوله تعالى فى إبراهيم : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥) ﴾ [النساء]

ومنه قول الشاعر :

وَلَمَّا التقيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جَهْدَهُ ... خَليلَيْنِ ذَابَا لَوْعَةً وَعتَابَا
كأنَّ خَليلاً فِى خِلاَلِ خَليلِهِ ... تَسَرَّبَ أثناءَ العِنَاقِ وَغَابَا

فإذا ما تقابل الخليلان ذاب كل منهما فى صاحبه أو تخلّله ودخل فيه .

فالمعنى : لو أنك تنازلتَ عن المنهج الذى جاءك من الله لَصِرْتَ خليلاً لهم ، كما كنت خليلاً لهم من قبل ، وكانوا يحبونك ويقولون عنك « الصادق الأمين » . إذن : الذى جعلهم فى حالة عداء لك هو منهج الله الذى جئتَ به ، فلو تنازلتَ عنه أو تهاونت فيه فسوف يتخذونك خليلاً ، فلا تكُنْ خليلاً لهم بل خليلاً لربك الذى أرسلك .

ويخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ ، فيقول :